الفصل العاشر

لماذا البنزين في أمريكا أرخص من روسيا

فصل خاص لليبراليين

عندما نتحدث عن ظواهر الطبيعة المرئية حذرنا البروفيسور الشهير ألا ننصاع للانطباعات الأولى. لأن الحقيقة الظاهرة كثيراً ما تناقض الحقيقة. "فالحقيقة التي لا جدال فيها بالنسبة لأي مراقب مباشر، أن الشمس تدور حول الأرض. بينما الحقيقة التي أدركها العقل البشري الباحث، تناقض تلك الحقيقة.
ب. أ. ستوليبين

قبل أن أبدأ بشرح الأسباب، أية مسائل تعالج الأزمة الاقتصادية العالمية لمنظميها. أريد بشدة أن أجيب عن سؤال واحد. تتناوله ألسن صحافتنا بكل اللهجات. عن ذلك يحب سياسيونا المعارضون الحديث - علاوة على أنه الورقة الرابحة الرئيسة. هو أب وأم الدعاية المستمرة لتقصير اقتصادنا الروسي - غباء وفساد القيادة الروسية. إنه ورقة الكاشف "لتخلفنا" وخطأ الطريق الذي تسير عليه روسيا.

السؤال يهمك بجلاء أيها القارئ المحترم:

لماذا البنزين في روسيا أغلى من أمريكا؟

في بلد ينتج النفط سعره فيه أغلى من سعره في بلد مستهلك. بالفعل لماذا؟ في الاقتصاد العادي هذا لا يمكن: فالبطيخ في إسترخان التي تزرعه سيكون أغلى دائماً في موسكو المستهلكة للخضار والفواكه. والحليب في المزرعة حيث تحلب الأبقار أرخص على الدوام من سوبر ماركت المدينة. ونحن نرى صورة غريبة - منتجنا يساوي "عندهم" أرخص مما يساوي عندنا. فما القضية؟

يقول ليبراليون كل القضية في المنافسة. في أمريكا عدد كبير من الشركات يعرض منتجات النفط. ولذلك فالسعر يبقى دائماً سعر السوق. هامش الربح - بالحد الأدنى، وقيمة البنزين تتأثر بدقة بكل ذبذبات قيمة برميل النفط. أما عندنا في روسيا كل شيء خاطئ، كل شيء ليس كما يجب، هاهو البنزين عندنا أغلى من أمريكا.

يحب الحديث بهذا الشأن كثيراً السيد نيمتسوف الذي كان موظفاً رفيعاً ثم نائباً ثم سياسياً مستقلاً. والآن أصبح مجرد المواطن نيمتسوف، ولكن بعض وسائل الإعلام تعطيه فرصة الكلام بسرور. وهو لا يخيب الآمال. فيبدأ دوماً من ورقة الليبراليين الرابحة - أسعار الوقود المرتفعة: "ويحدث ذلك تماماً بسبب كون أساس الرأسمالية الروسية - هو الاحتكار. وفي كل نواحي الحياة - ابتداء من غازبروم وانتهاء باحتكار الاتصالات أو الاحتكارات في سوق منتجات النفط وهلم جراً. نحن - أكبر منتج للنفط في حين أن بنزيننا أغلى مما هو في أمريكا"[1].

على الوتر نفسه يعزف ليونيد غوزمان، أحد أقرب رفاق تشوبايس في العمل وفي السياسة، وفي الطاقة، الشريك في رئاسة الحزب المشكل حديثاً "برافوي ديلو" "القضية المحقة". أجاب على سؤال عن ارتفاع سعر البنزين في روسيا هكذا: "لأن الدولة تسيطر على قطاع النفط. فإذا كفت عن السيطرة - تأتي المنافسة... يوجد منتجون مستقلون بعضهم عن بعض، وهم يتصارعون على المستهلك... عندما يتنافس منتجو البنزين يصبح البنزين أرخص"[2].

أقول الصدق، أن صبري قد نفد. والقضية ليست حتى في كون رئيس حزب يسعى لكامل السلطة في البلاد (وهذا ما تهدف إليه كل الأحزاب السياسية)، يحاكم في الاقتصاد على مستوى طالب مدرسة في الصفوف الأولى. القضية ليست في عدم استحياء نيمتسوف وغوزمان وبقية المناضلين من أجل حريتنا. من التوقيع علناً على جهلهم المطبق وعدم إدراكهم للعناصر الأساسية للتكوين الاقتصادي المعاصر. القضية في أنهم بهرائهم عن السوق، المنافسة، والفعالية يضللون أبناء وطني ويزرعون الفوضى في عقولهم وقلوبهم.

---

[1] هواء المحطة الإذاعية "صدى موسكو"، برنامج "لا مخرج" 2008/5/21 .
[2] هواء محطة التلفزة ن تي في. برنامج "نحو الحاجز". 2008/10/16.

لذلك أكتب هذا الفصل خصيصاً لكم. أيها الليبراليون الأعزاء. لك يا سيد نيمتسوف ولك يا سيد غوزمان. ولكم أنتم بقية العاشقين "للديمقراطية الأمريكية". أريد بشدة أن آمل أنكم تقرؤون كتباً بالفعل. وليس الشيكات فقط وإذا حصل أنكم لا تقرؤون. فقد يروي لكم أحد القراء وتعرفون في النهاية لماذا البنزين غال في روسيا ورخيص في أمريكا.

في البداية سؤال مقابل: إذا كان الأمر فقط في مردودية الاقتصاد وسوقيته. لماذا البنزين غال في أوروبا لهذه الدرجة؟ لماذا تؤخذ أمريكا مثالاً على الدوام، حيث سعر الوقود قليل فعلاً، ولا يؤخذ السعر في ألمانيا وبلجيكا أو فنلندا؟ الجواب بسيط - لأنه عندئذٍ تسقط كل الحسابات: البنزين في أوروبا أغلى بكثير من روسيا. واقتصاد الاتحاد الأوروبي ليس أقل سوقية من اقتصاد أمريكا. فلماذا هذا الفرق إذن؟

كل القضية في الضرائب، يقول الليبرالي - في أوروبا تفرض على بائعي الوقود ضرائب ورسوم مرتفعة. هذا صحيح. من هنا ننتقل انسيابياً إلى سؤال: ولماذا لا تفرض السلطات في أمريكا ضرائب مشابهة على بائعين مشابهين لوقود مشابه؟ ألا تحتاج أمريكا للنقود؟ كلا تحتاجها كثيراً. مجموع دين الدولة الأمريكي يماثل الأرقام الفلكية يصل إلى 10.5 تريليون دولار ويتزايد على الدوام. هذا يعني أن الدولة أي كل الأمريكيين، مدينة لبلدان أخرى[1]. والمساهمين أفراد وشركات بمبلغ يقارن مع مبلغ الدخل السنوي لتلك الدولة الأمريكية ذاتها.

يحصل أمر مسل جداً - روسيا وأوروبا. غير المدينتين مقارنة بأمريكا تجتهدان لجني النقود بفرض الضرائب على البنزين الذي يحتاجه الجميع، في أمريكا الغارقة في الديون كما في الحرير - لا تفعل. لماذا لا تحتاج حكومة الولايات المتحدة للنقود؟ فإنها لا تبني اشتراكية بوجه إنساني على امتداد أرضها من آلاسكا إلى كاليفورنيا. لماذا لا تجمع أمريكا الأموال، أيعقل أنها لا تنوي تسديد ديونها الهائلة؟

---

[1] تدين الولايات المتحدة في الوقت الحالي لروسيا بمبلغ 74.4 مليار دولار. ارتفع هذا الدين في السنوات السبع الأخيرة 7 أضعاف. هذا ما أخبر به المدير التنفيذي "لمشروع واشنطن للأمن القومي" جيمس لودس في تشرين الثاني 2008. http://news.mail.ru/politics/2154593/.

كلا، لا تنوي، بل العكس، تجعل الدين أكبر فأكبر. وهي تستمر في استهلاك ضعفي ما تنتج. تحدثنا عن الديون الأمريكية في الفصل السابق ولذلك لن نكرر الحديث. لننتقل فوراً إلى الجوهر. بم يحتاج مالكو آلة الطباعة النقود؟ ولماذا الضرائب؟ لماذا الرسوم الجمركية المرتفعة؟ فهم ببساطة يستطيعون تشغيل آلة الطباعة ويطبعون من النقود ما يشاؤون وستكون هذه النقود حقيقية للغاية ومطلوبة - إنها دولارات أمريكية. ليس سدى أشعل النظام الاحتياطي الفيدرالي الذي حل محل الولايات المتحدة الأمريكية حربين عالميتين، ليس سدى صارع الاتحاد السوفيتي على مدى 46 عاماً. من عام 1945 إلى 1991 بتصميم ودون كلل. انهار الاتحاد السوفيتي. وقد كان القوة الأخيرة القادرة أن تضع موضع الشك إمكانية طبع البنكنوت الأخضر غير المغطى بشيء. دون حدود ودون كلل. وفي الاتحاد السوفيتي كان سعر البنزين قروش قليلة.

لم يعد الاتحاد السوفيتي موجوداً، واليوم تجري كل التجارة العالمية بأهم الموارد بالدولار فقط. عند كل عملية في سوق الذهب، النفط، الغاز المنتجات الغذائية، المعادن...إلخ يجب في البداية شراء الدولارات وليس السلعة ومن ثم دفع القيمة بالدولارات. وهذا يعني أن طباعة الورق، والأدق، الأصفار في الكمبيوتر. تبيع أمريكا في السوق العالمية بسعر غال. أصبح الدولار ذاته سلعة، يحتاجها الجميع أكثر من النفط أو الغاز.

ما كلفة الورقة من فئة المئة دولار؟ عشر سنتات. ما كمية النفط التي يمكن شراؤها بها؟ برميلان إذا كان السعر 50 دولاراً للبرميل. في واقع الأمر دفعت أمريكا 10 سنتات مقابل النفط، تلك هي كلفة المئة دولار. ما هي كلفة استخراج الذهب الأسود؟ تختلف من مكان لآخر. في السعودية والكويت يمكن نزح النفط بالدلاء. من حفرة حفرت مسبقاً بالرفش. في روسيا لا يحصل الأمر على هذه الصورة. نفطنا بعيد وعميق. إنه في الجليد الدائم، في التايغا. حيث لم يسكن البشر سابقاً قط. يجب استخراجه من أعماق كبيرة ونقله إلى مسافات بعيدة. في السعودية أنابيب قصيرة ويصل الذهب الأسود إلى جوف الناقلات. نحتاج لفعل ذلك إلى أنابيب "أفاعي" بطول آلاف الكيلومترات التي يجب مدها في الأوحال مستحيلة العبور وفي غابات التوندرا والتايغا.

النتيجة بسيطة - نفطنا مكلف. السعر يحدد باختلافات. الكلفة تتأرجح بين مختلف الدراسات لذلك لن نذكر أرقاماً محددة. ببساطة يجب أن ندرك أن الكلفة عالية. إلا أن هذا نصف المصيبة فقط. والمصيبة في كون دولتنا هزمت في الحرب الباردة وتفككت إلى أجزاء. في هذه التراجيديا فقدت مساحات من الأراضي وقتلت مئات آلاف الأرواح ماتوا قبل الأوان أولم يولدوا أساساً من مواطني دولة كانت يوماً ما دولة عظمى.

حتى اصطدام السيارة- هو تراجيديا. فإن قتل بشر- فهي إنسانية، إذا دمرت فقط وسيلة النقل- فهي اقتصادية. أما هنا فقد سقطت وانهارت أكبر دولة في الكوكب. المحللون الذين يحصون كل شيء لسبب ما لا يستعجلون بتحديد الرقم الذي يبين لنا كم دفعنا ثمن "بيريسترويكا" غورباتشوف وتفكيره الجديد"! الخسائر الاقتصادية من انهيار الاتحاد السوفيتي لم يحصها أحد، لأنها ستشكل رقماً مرعباً. الصناعة مدمرة إلى درجة كبيرة، قطاعات بحالها فقدت أو تكاد تفقد، أصابت الفاقة السكان. كيف تكمل الميزانية في مثل هذه الظروف؟ بأية أموال تمد الطرقات، وتبنى المشافي وتصنع الغواصات والمقاتلات من الجيل الخامس؟ المخرج وحيد- فرض الضرائب على كل ما يتعلق بالكربوهيدرات.

تتصرف أوروبا على النحو ذاته. فهناك سيارة لكل مواطن، ويحتاج كل مواطن للبنزين أو المازوت. الضرائب تذهب إلى الميزانية. ما هو الخطأ في ذلك؟ أين الفساد وعدم الفعالية، أو قلة الحكمة؟ لماذا لا يشتم ليبراليونا أو يضحكون من النرويج وهي أحد أكبر مصدري النفط في العالم؟ وفي النرويج ليست وحدها أسعار المشتقات النفطية مرتفعة، هناك كل شيء عموماً أغلى بكثير من ألمانيا أو اليونان. أيعقل أن في النرويج أغبى الحكومات وأقلها فعالية في أوروبا؟ وفي الوقت عينه على مستوى معيشة[1]؟

لا شأن للمنافسة. لا تلعب "السوقية" أو "الفعالية" أي دور.

---

[1] أصبحت النرويج دولة غنية فقط في 1978 عند اكتشاف النفط فيها. الحقيقة لم يصدق أحد تقريباً الجيولوجيين. علق وزير الاقتصاد ساخراً، بأنه سيشرب كل النفط الذي سيعثرون عليه. والآن يمزح أدلاء متحف النفط في ستافانغير: "كان الوزير ليواجه متاعب جمة لو أنه حافظ على وعده".

البنزين رخيص في أمريكا، لأنها تحصل على النفط الذي يصنع منه البنزين مجاناً.

أما بالنسبة لروسيا والنرويج هذا النفط يكلف غالياً بسبب الظروف الطبيعية، وميزانيات البلدان تتشكل في كثير منها على حساب الضرائب على النفط. لا يحتاج الأمريكيون هذه الضرائب فميزانيتهم تمتلئ ببساطة على حساب إصدار الدولار.

تصوروا معملين لإنتاج عصير التفاح. أحدهما يقع وسط بساتين التفاح. والآخر يقع بعيداً عنها. يجب على المصنع الأول أن يستأجر عمالاً. يجني التفاح، ويغسله، يعصره. بعد ذلك يجب دفع الضرائب، ضرائب مرتفعة. في النتيجة صندوق العصير يكلف المصنع دولاراً واحداً، ويبيعه بدولارين.

قد يبدو أن الظروف أسوأ للمصنع الثاني، لأنه يقع بعيداً عن مصدر التفاح. ولكن هناك اختلاف واحد: عند المصنع الثاني ضامنون جبابرة. هم القوات البحرية الأمريكية، القوات الجوية الأمريكية. منهم أقوى وأكبر جيش في العالم. هذا ما حصل بالصدفة طبعاً. أن أمريكا تنفق على التسليح أكثر مما تنفق بقية دول العالم مجتمعة، ويجب عليها أن تطعم وتمول هذا الجيش الهائل. ثم تسقيه - من عصير التفاح ذاك. لذلك تطبع أمريكا النقود بكميات ضخمة، وهي غير مغطاة بشيء في الواقع، سوى القوى الجوية والبحرية. من يرفض هذه النقود، تقصفه- نسميه إرهابياً. وشيوعياً وفاشياً. هذا مستمر منذ مئة عام. في النهاية العالم كله- طوعاً أو كرهاً- أصبح يستخدم النقود الأمريكية في كل مكان. لا حاجة للعنف بعد الآن: طالما يأخذون الأوراق الخضراء، يعني أن المتاجرة بها مفيدة. لذلك يشحن المصنع الأول بكامل الاختيار وعصير التفاح المركز بسعر 1.2 دولاراً. ولا تأخذ أمريكا من مصنعها ضرائب تقريباً. في النهاية يكون لديه سعر الصندوق أرخص من الأول، الذي يقع وسط بساتين التفاح المزدهرة.

لا تملك روسيا ولا النرويج آلة طباعة. كذلك لا يوجد لدى فرنسا أو ألمانيا، وحتى الآن يقع اليورو في ظل الدولار. لذلك يضطرون لأخذ ضرائب كبيرة من الشركات النفطية ومن المشتري العادي. نحن نعيش في روسيا، في بلادنا يدخل في

القيمة النهائية للبنزين ما يلي:

- ضريبة استخراج الثروات الباطنية تعدل نسبتها مرة في الشهر.
- ضريبة القيمة المضافة.
- رسم منتجات مصافي النفط.

في الحساب النهائي يشكل ذلك 53% من ثمن البنزين، الذي تزودون به سياراتكم[1]. في أمريكا الضرائب أقل أو أنها غير موجودة بتاتاً. الفرق في الضرائب يشكل الفرق بين أسعار الوقود النهائية في روسيا وأمريكا. لا تندهشوا فأنتم تنظرون في المرآة المنحنية للاقتصاد العالمي المعاصر. مثلما يكون الاقتصاد تكون تشوهاته. "معجزاته" كثيرة العدد. على سبيل المثال، يشتري سكان الصين بنشاط في مخازن - الإنترنت الأمريكية الأحذية العالية الجودة والملابس. لأنها في أمريكا أرخص بعدة مرات. أين أنتجت هذه الأحذية والقمصان؟ في الصين...

خطط الاقتصاد العالمي في العصر الحديث، بحيث تستهلك أمريكا أكثر مما تنتج بعشر مرات. يحتمل أن يتغير هذا الوضع. من أجل ذلك يجب أن تباع الهيدروكربونات "بغير الدولار" أنتم ربما لا تعرفون، ولكن كل شيء عملياً يباع في السوق العالمية بالدولار حصراً. النفط والغاز والمعادن والأغذية - كل شيء. الدولار - ليس مجرد مقياس للتقييم. يجري شراء السلع في تجارة الموارد الأساسية العالمية بالدولار فقط. لا يمكن شراء النفط باليورو أو باليون. لابد من تبديل العملة بالدولار ومن ثم الدفع. بدوره بائع النفط يبدل الدولار بعملته الوطنية. وهكذا ينشأ طلب مصطنع على الدولارات.

الارتباط بين الأزمة والدولار وثيق: لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر عملياً. إذا لم تعالج المشكلة التي يصنعها النظام الاحتياطي الفيدرالي للعالم بطبعه النقود دون أية قيود، لا تمكن معالجة المسائل المالية الشاملة. في 15 تشرين ثاني 2008 عقد في واشنطن لقاء قادة الدول العشرين الأكثر تطوراً في العالم. الهدف المعلن - للقرار المشترك حول طرق تجاوز الأزمة العالمية. النتيجة؟ صفر. لم يصدر عن لقاء قادة العشرين قرار معلن بوضوح. "أحد الإنجازات المفتاحية كان إقرار مبادئ معينة

[1] كونسيرفاتور. 2009. No 11

والقيام بأعمال معينة تهدف إلى تكييف أنظمتنا المالية مع حقائق القرن الحادي والعشرين لأن كل البنى المنظمة المتوفرة حالياً هي بنى منظِّمة من القرن العشرين" - قال في نهاية اللقاء الرئيس الأمريكي بوش[1].

لا شيء مفهوم، ضباب كثيف - "أعمال معينة"، "مبادئ معينة" لماذا لم يُقرر شيء؟ لماذا لم يتفقوا؟ كيف يقنعون أصحاب الاحتياطي الفيدرالي بألا يطبعوا نقوداً أكثر؟ هل يمكن إقناع أحد. أياً كان بالحسنى ألا يعيش على حساب غيره؟ لن يكون هذا الوعي عند أي مخلوق هي في الأرض. خصوصاً إذا عاش قبل ذلك عقوداً متطفلاً. لم يتم أي اتفاق. ماذا يتبقى؟

إنه الصراع، الصراع السياسي العادي. الذي لا يتوقف لدقيقة. المعركة تحتدم من أجل مستقبل كل بلد وكل الكوكب. سلاح المتصارعين - العملة الصعبة - النقود. مباشرة بعد لقاء قادة الاقتصادات العشرين الرائدة في العالم. انطلقت قيادة بلدنا بالحديث عن بيع مواردنا بعملتنا الخاصة. هذا ليس شيئاً ضئيل الشأن، كما يمكن أن يبدو من النظرة الأولى. إنه حقاً حدث تاريخي. لا يجوز التقليل من أهميته. نعم يتحدثون؟

تبدأ روسيا ببيع نفطها وغازها بالروبل. حالياً لبيلاروسيا، فييتنام. ويحتمل إلى مولدافيا. ونيكاراغوا يفهم التوجه السياسي لهذه الدولة أو تلك. من العملة التي تتاجر بها مع هذه الدولة. انظروا بأنفسكم: تلقت أوكرانيا "هدية" من أمريكا: فيكتور يوشينكو. وقعت عقود الغاز الروسي بالدولار. أما لوكاشينكو الذي يكن لروسيا حباً كبيراً، يوقع عقود الغاز ذاته: مع بيلاروسيا بالروبل! وكل شيء مفهوم فوراً. فالعملة الصعبة اليوم - ليست مجرد نقود، وليست مجرد سك وطباعة أو وسيلة للدفع. إنها سلاح فائق الأهمية في الصراع مع المتنافسين. فيما مضى كان نفوذ الدولة ينتهي حيث تمكنت دباباتها من الوصول، فالدبابات السوفيتية، مثلاً، وصلت إلى برلين الشرقية- وهناك انتهى نفوذ الاتحاد السوفيتي. تغير العالم بشدة منذ ذلك الحين. عدم فهم الوقائع الجديدة ساهم كثيراً في انهيار الاتحاد السوفيتي. في أيامنا ينتهي نفوذ الدولة حيث وصلت عملتها. هذه القاعدة ليس لها استثناء.

[1] http://www.rian.ru/trend/G20_summit_14112008/.

فالولايات المتحدة لذلك بالذات هي الدولة الرئيسة في زمننا الحالي. لأن دولارها نفذ إلى كل مكان. اليوم تدخل العملة أولاً وعلى إثرها يأتي الجيش. الدبابات تلعب اليوم دوراً بوليسياً. مهمتها - ألا تتيح لدولة أخرى أن تزيح العملة من منطقة ما.

لتأمين هيمنة عملتها في العالم، تملك أمريكا أضخم آلة عسكرية في الكوكب، أي زحف، أي محاولة للاعتداء على "الآلة الطابعة" تجتثها من الجذور، وسوف تحاول أمريكا لاحقاً أن تحافظ على الوضع الحالي، إلا أنه في نهاية 2008 - بداية 2009 ظهرت في الإعلام أنباء كثيرة تقول لنا أن العالم يتغير. على الأقل، يحاول العالم أن ينزع عنه نير الدولار. فجأة تحدث العرب والصينيون عن التجارة بعملتهم.

"في عاصمة قطر، الدوحة عقدت قمة دول مجلس التعاون الخليجي. المسألة الأساسية للقاء أصبحت مسألة اعتماد عملة موحدة على أراضي دول التعاون الخليجي الست - ودينار الخليج. هذه الممالك النفطية مصممة على ذلك - البيان الرسمي الصادر عن القمة ينص عل وضعه في التداول اعتباراً من 2010/1/1".[1]

"سوف تسمح الصين بالتجارة مع بعض دول شرق آسيا. باليوان لكي تدعم مصدريها، تخبر بي بي سي. حسب المخطط المزمع تنفيذه، إذا كان لدى طرفي العمل الاقتصادي الخارجي "يوان" نقداً فلن يكونا بحاجة، كما في السابق، للذهاب إلى سوق العملات الدولية لتبديلها بأية عملة أخرى"[2].

هذه البيانات حذرة. إنها ليست إنذارات. إنها سبر خجول للتربة.

"إلا أننا مع ذلك نفترض أن الدول لن تتمكن بالكامل من الانتقال إلى العملة الموحدة في 2010. القرارات المتعلقة بالسياسة النقدية يجب أن تكون بالتنسيق المشترك، حتى الآن لا نرى ذلك. على سبيل المثال كانت ردة فعل بلدان الخليج مختلفة على خفض نسبة الفائدة في أمريكا"[3]. تسمع شكوك من شواطئ الخليج "متى يبدأ المخطط العمل، حتى الآن غير معروف"[4]- يكتبون عن التجارة المتوقعة باليوان.

---

1 http://www.rbcdaily.ru/2007/12/06/world/307751.
2 http://www.lenta.ru/news/2008/12/25/yuan/.
3 http://www.rbcdaily.ru/2007/12/06/world/307151.
4 http://www.lenta.ru/news/2008/12/25/yuan/.

تحتدم أمام أعيننا ملحمة حاسمة. المحاربون المعاصرون لا يرتدون الدروع والخوذات، بل البدلات الأنيقة وربطات العنق. ولكن نتائج انتصاراتهم أو هزائمهم. شبيهة بنتائج حروب أسلافهم البعيدين. وسوف تحدد مستقبل كوكبنا. التناقض يكمن في كون المشاركين في المعركة لا يعرفون أبداً في أي ملحمة "شهيرة" قدر لهم أن يشاركوا، فالجنود، الذين قاتلوا في واترلو أو بورودينو كانوا سعداء لبقائهم أحياء بعد الملحمة الدموية قرب المنطقة البلجيكية أو القرية الروسية الصغيرة. وفهم أحفادهم فقط عظمة انتصاراتهم. أما اليوم فإن بورودينو وواترلو - هي تقريباً "علامات مسجلة". يحتمل أن تكون الآن تجري أمام أعيننا معركة فاصلة كتلك. ويحدونا أمل كبير أن هذه لن تكون معركة كتلك التي جرت على نهر كالكا، وإنما كتلك التي جرت على أرض كوليكوف[1]. في كل الأحوال لن تكون النتيجة واضحة فوراً. بعد الانتصار على ماماي في 1380 ظلت روسيا حوالي مئة عام تدفع الضريبة للأوردا. كم من السنين علينا أن ندفع الضريبة "للأوردا" الحالية، وأن نقدم ثرواتنا الطبيعية مقابل دولاراتها الورقية، التي توضع لاحقاً في سندات خزينة "الأوردا"؟ لا أحد يعرف جواب هذا السؤال. حتى أولئك الذين يقاتلون يومياً من أجل مستقبل بلادهم على طاولة المفاوضات الدبلوماسية أثناء القمم، شتى اللقاءات. يمر الزمن بسرعة هذه الأيام، ولكننا نحتاج للصبر. فإن فهم من انتصر في الملاحم الدبلوماسية أمر معقد جداً. كل جهة تطبل وتزمر عن انتصارها. العمليات الحربية لها مؤشر واضح وغير قابل للجدل - إذا دخلت الدبابات الروسية إلى برلين يعني أن روسيا انتصرت. لا يوجد هذا في السياسة والدبلوماسية. المثال الصارخ عن ذلك - أزمة الغاز بين روسيا وأوكرانيا. هل خسرت روسيا، هل انتصرت أوكرانيا - سوف نتحدث عن ذلك في الفصول التالية، كما نتحدث عن السؤال لماذا احتاجت أمريكا أن تغلق صنبور الغاز بيدي فيكتور يوشينكو.

علينا أن نعي جميعاً، أنه بدون زيادة ثقل عملتنا، بدون توسيع "نطاق تواجدها" لن تتمكن روسيا أن تصارع بنجاح في العالم المعاصر القاسي. ولتأكيد

---

[1] في معركة نهر كالكا أبيدت القوات الروسية. التي واجهت المغول لأول مرة، عن آخرها، أما على أرض كوليكونا انتصر الروس على الغزاة.

هذه الحقيقة بالذات كانت التصريحات القريبة لميدفيديف وبوتين عن ضرورة الانتقال من الدولار إلى الروبل في التجارة مع الشركاء الأجانب. إنها نقطة مفتاحية، هذا فائق الأهمية. إذا تمكنت روسيا أن تنتزع وتحمي حق الروبل في أن يصبح أحد العملات الصعبة الإقليمية، سيكون ذلك إنجازاً فائق الأهمية، وعملة إقليمية يعني أن دفع ثمن البضائع في إقليم معين سيكون بهذه العملة حصراً. ومن يحدد حدود هذا الإقليم؟ وأين هي؟ العملة الإقليمية - هي الخطوة الأولى نحو العملة العالمية. قد لا تحدث الخطوة الثانية ولكن إمكانية حدوثها تكون محضرة ومعدة. حتى بقاء الدولار بصفته عملة عالمية احتياطية في حالة ظهور عدة عملات إقليمية سيؤدي إلى إضعاف الثقل السياسي الأمريكي. سوف تظهر مراكز جديدة على خريطة العالم السياسية، التي بواسطة إصدار نقودها الخاصة، ستبدأ حتماً خطوة إثر خطوة تنتزع من أمريكا نفوذها. وبالتالي- القوة الاقتصادية ومستوى المعيشة.

والآن هل فهمتهم أيها الليبراليون الأعزاء لماذا البنزين في روسيا أغلى منه في أمريكا؟ آمل ألا يتكرر مختلف الهراء عن التنافس والاحتكار. وإلا علينا، عفواً، أن نشك في عقلكم- أيعقل أن تحليلاً غير معقد كهذا يصعب عليكم فهمه؟ في هذه الحالة سيكون من الغريب كيف قادت البلاد منظمة الطاقة الذرية في النظام الكهربائي الموحد، كيف اجتمعوا في الحكومة؟ أيعقل ألا يبقى لنا مرة أخرى، سوى أن نشك في أخلاقكم؟

ولكنني واقعي ولذلك أنا مقتنع بأن العويل حول البنزين الغالي والاقتصاد التنافسي سوف يغلق أسماعنا لفترة طويلة. فقد جعله الليبراليون شعاراً وعنواناً ولا يريدون التخلي عنه ببساطة. وسوف يتغنون به بكل النغمات: "كلما أتيحت الفرصة يطرحون على السلطات أسئلة غير مريحة. على سبيل المثال: لماذا سعر البنزين في روسيا أغلى من أمريكا، رغم احتياطات النفط الضخمة؟"[1].

فإذا سمعتم خطيباً يرفع عقيرته بهذا- فاطرحوا عليه سؤال النرويج والأسعار النرويجية. من السهل أن تطرح أسئلة غير مريحة، يصعب عليك أن تجيب عليها

[1] هذا كلام بوريس ينمتسوف: http://www.voanews.com/russian/archive/2008-07/2008-07-02-voa9.cfm.

بنفسك بجواب واضح ودقيق. والأصعب من ذلك أن تقول الحقيقة- وهذا ما يستحيل عليهم نهائياً. إذن فليتصببوا عرقاً. هذا شأن "السؤال المحرج" يعود مثل البوميرانج[1] على محب الجدال بشأن أسعار البنزين. كما قال هانس كريستيان أندرسن: "لا سلاح أخطر ضد الشيطان من الحبر وكتابة الكتب": فهما سوف يطردانه يوماً من الكون". قال ذلك يوماً كاتب الأساطير العظيم.

نرجو أن يكون ذلك.

[1] Boomerang - سلاح صيد خشبي على شكل منجل استخدم في العالم القديم. والبوميرانج الأسترالي فقط يعود إلى الرامي في حال عدم الإصابة.

obeikandl.com